جوارى القصور

أبناء الجوارى

تسربت الجوارى المليحات إلى بلاط الخلفاء ، ومنازل الأمراء والقواد ؛ فاستلبن لب مواليهن ، حتى أصبح هؤلاء لايصدرون أمراً إلا عن رغبة لهن . وقد حاول بعض الخلفاء الأمويين ، ولا سيما معاوية ، إقصاء النساء الدخيلات عن النفوذ ؛ وأن يحصروهن فى الخدر ، فلا يتطاولن إلى السلطة ، وذهب التحفظ بالأشياخ المتزمتين إلى الحط من أقدار أبناء الجوارى ؛ ونصحوا بالابتعاد عنهن ، لأنهن يفسدن العرق العربى ، ويضعفن العصبية القديمة . ونظر كثيرون من هؤلاء إلى الهجناء نظرة احتقار وامتهان أول الأمر ، إلى أن كثر عددهم ، وكان منهم أبناء خلفاء وأشراف . فقد روى رجل من قريش قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب ؛ وهو من هؤلاء المحافظين المتشددين فى شؤون العرق ، فقال لى يوماً : من أخوالك ؟ فقلت : أمى فتاة . فكأنى نقصت فى عينه . فأمهلت حتى دخل سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، فلما خرج من عنده قلت : يا عم ،

من هذا ؟ فقال سبحان الله . أتجهل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن عبدالله بن عمر . قلت : فمن أمه ؟ . فقال : فتاة . ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق فجلس عنده ، ثم نهض . فقلت : يا عم . من هذا؟ فقال : أتجهل من أهلك مثله ؟ ما أعجب هذا ! هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق . قلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة . فأمهلت شيئاً حتى جاء علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، فسلم عليه ، ثم نهض . فقلت : يا عم . من هذا ؟ قال : هذا الذي لا يسع مسلماً أن يجهله ، هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقلت : من أمه . ؟ قال : فتاة . قلت : يا عم . رأيتني نقصت في عينك لما علمت أني لأم ولد . أفمالي في هؤلاء أسوة قال : فجللت في عينه جداً (١) .

وكانت هذه الكراهية تتعدى الأغراب أحياناً إلى الآباء أنفسهم ، فيفضلون أولادهم من الحرائر على الذين أنجبتهم الجواري ، كما حدث عند ما استبق بنو عبد الملك في حلبة الجياد ، فسبقوا مسلمة ، وكان ابن أمة ، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدي القائل :

---

(١) الكامل ج ١ ص ٢٥٢ ؛ المشرق ج ٣ تموز ١٩٣٧ .

نهيتكموا أن تحملوا فوق خيلكم
هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفـــاه ويسقط سوطه
وتخـــدر ساقاه فما يتحرك

وهل يستوى المرءان : هذا ابن حرة
وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

فقال له مسلمة : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين . ليس هذا مثلى ، ولكن كما قال ابن المعمر :

فما أنكحونا طائعـــين بناتهم
ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زاد ما فيها السباء مذلة
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا

وكم قد ترى فينا من ابن سبية
إذا لقى الأبطال يطعنهم شـــذرا
ويأخـــذ ريان الطعان بكفـــه
فيوردهـــا بيضاً ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينيه وقال : أحسنت يا بنى . ذاك والله أنت . وأمر له بمائة ألف درهم مثلما أخذ السابق[1].

(١) المستطرف ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

ولا شك أن هذه الحالة قد تعدلت فيما بعد ، وتحولت إلى نقيض ما كانت عليه ، وأصبح العرب يسعون جاهدين فى إنجاب الهجناء ، لأنهم فطنوا إلى أن الزواج فى النزائع — اللواتى يتزوجهن فى غير عشيراتهن — يؤدى حتما إلى إنجاب أولاد أشداء أقوياء . فرغب كثيرون منهم فى البناء بالأعجميات ، وقد قال أحدهم : بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كأبن الأعجمية(١) .

ومن الثابت أن التدله بالأعجميات لم ينتج معظمه عن الرغبة فى النسل القوى النشيط ، وفى الإتيان بجيل تمتزج فى عروقه الدماء العربية والأعجمية ، وانما هذا التدله ناشئ عن ميل جنسى عنيف ، وعن انتقال فرسان العرب من بلد إلى آخر ، وابتعادهم عن العربيات الخالصات ، وكان لا بد لهذا الاتصال من أن يؤدى إلى إنجاب الأولاد . وقد فتن كثير من العرب فى أول عهدهم بلون الأعاجم المشرق ، وسرهم أن يكون أبناؤهم على شىء من البياض ، وبلغ إعجابهم بأبناء الأعاجم أنهم كانوا يفضلونهم علناً على أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . فقد قال رجل من أبناء المهاجرين : أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة ، وخرجوا منها ، وأولادنا كأنهم

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣ .

مساجر التنانير »[1] وقال آخر : من أراد قلة المؤونة ، وخفة النفقة ، وحسن الخدمة ، وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإماء دون الحرائر . وقال ثالث : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر .

نفوذهن

أخذ نفوذ الجوارى يقوى شيئاً فشيئاً حتى أصبحن المرجع الرئيسى فى كثير من القضايا . وسعى مؤسسو الدولة العباسية للحد من سلطانهن وإضعاف شأنهن ، فكانوا يتفحصون أمر اللواتى يدخلن قصورهم ، فإذا وجدوهن ذوات أسر ، لهن أهل ، امتنعوا عن شرائهن ، والبناء بهن . وكان الخليفة المنصور أكثر العباسيين تشدداً فى هذا الباب . لذلك كانت الجوارى يعمدن أحياناً إلى الحيلة ، حتى إذا ولدن للخلفاء أسفرن عن حقيقتهن ، وأبن نسبهن ، كما فعلت الجارية الخيزران التى كانت لرجل من ثقيف ، فقدم بها مكة فباعها فى الرقيق . فاشتريت وعرضت على المنصور فقال لها : من أين أنت ؟ . فقالت : المولد مكة ، والمنشأ جرش . قال : ألك أحد ؟ قالت : ما لى أحد إلا الله ، ما ولدت أمى غيرى . قال : يا غلام .

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٩ .

اذهب بها إلى المهدى ، وقل له : تصلح للولد . فأتى بها المهدى فوقعت منه كل موقع . فلما ولدت موسى وهرون قالت : إن لى أهلا بجرش قال : ومن لك ؟ قالت : لى أختان اسماهما أسماء وسلسبيل ، ولى أم وأخوان . فكتب فأتى بهم ، فتزوج جعفر بن المنصور سلسبيل ، فولدت منه زبيدة ، واسمها سكينة ، وهى التى تزوجها الرشيد . وقال المهدى للخيزران : قد ولدت رجلين بايعت لهما ، وما أحب أن تبقى أمة ، بل أود عتقك ، فخرجت إلى مكة ، وعادت منها فتزوجها(١).

ومنذ ذلك العهد غدت الجوارى أقرب النساء إلى قلوب الخلفاء ، وأكثرهن نفوذاً عندهم . فملكت ذات الخال زمام هرون الرشيد حتى أنه أقسم يوماً أنها لا تسأل شيئاً إلا قضاه لها فطلبت منه أن يولى أحد المقربين إليها الحرب والخراج بفارس سبع سنين . فامتثل لها ، وكتب له عهداً به ، وشرط على ولى عهده بعده أن يتمها له ، إن لم تتم فى حياته(٢).

وهارون الرشيد هو أول من غالى من العباسيين فى تفضيل الجوارى وتقريبهن . فإن معظم أولاده كانوا أبناء إماء : منهم عبدالله المأمون وأمه أم ولد فارسية يقال لها مراجل ، والقاسم

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ٨٠ .

المؤتمن وأمه أم ولد يقال لها قصف ، ومحمد أبو إسحق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها ماردة ، وهى تركية الأصل ، وكان لها أثر كبير فى أخلاق ابنها ؛ فدعاه ميله إلى أمه إلى استدعاء الأتراك الذين أضعفوا النفوذين الفارسى والعربى ، وانتزعوا من الخلفاء العباسيين كل سلطان . ومن أولاد هارون الرشيد صالح وأمه أم ولد يقال لها رئم ، ومحمد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب وأمه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد أبو العباس وأمه أم ولد يقال لها خبث ، ومحمد أبو سليمان وأمه أم ولد يقال لها رداح ، ومحمد أبو على وأمه أم ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو أحمد وأمه أم ولد يقال لها كتمان(١).

فإن تعلق العربى بانتسابه إلى آبائه وجدوده وقبيلته قابله بعد الفتوح تهاون فى نسب الأم ، حتى ندر من الخلفاء من أمه حرة ، وكاد يلى الخلافة فى مستهل القرن الثالث الهجرى إبرهيم ابن المهدى ، وهو شديد السواد ، براق اللون ، وأمه أم ولد سوداء حالكة اللون .

كثيراً ما كانت الجوارى يشتركن فى المؤامرات التى تحاك فى البلاط عند خلع خليفة ومبايعة آخر . بعضهن قمن بأدوار حاسمة فى تاريخ العباسيين : منهن الجارية أم المقتدر الذى ولاه

(١) الطبرى ج ٦ ص ٥٤٠ .

الأتراك الخلافة وهو صبي فى الثالثة عشرة من عمره ظناً منهم أن بوسعهم التصرف باسمه بشؤون الخلافة كما يشاؤون لضعفه وصغر سنه . فإذا بهم يلاقون عنتاً شديداً من أمه ، وهى أم ولد رومية . فقبضت على أزمة الأمور ، وقادت شؤون الدولة بحزم وحنكة مدة ربع قرن ، وهى أطول مدة تولى فيها عباسى الحكم آنذاك . وخلع الخليفة أثناء حكمه مرتين كانت أمه تسعى إلى إعادته إلى كرسى الخلافة إلى أن تألب عليه الخصوم ، فخرج لقتالهم فصرعوه . والجارية الشيرازية حسن التى عاشت فى البلاط أيام الخليفتين المتقى والمستكفى هى التى سعت فى إقصاء الأول عن الخلافة ، وأوعزت إلى غلامها السندى بسمل عينيه عند ما أحجم القواد عن فعل ذلك ، وتسلطت على الثانى حتى أقضت مضجعه ، وقضت عليه فيما بعد . وقد اندثرت فى الخليفة الطائع جميع ملامح الجنس العربى ، فكان شبيهاً بسكان المناطق الشمالية الباردة ، أبيض أشقر البشرة والشعر ، أزرق العينين ، طويل القامة حسن الجسم ، شديد القوة .

أديانهن .

وكما أن الجوارى متعددات المصادر والأجناس والألوان

فهن مختلفات أيضاً فى الدين . ينتمين عادة إلى الإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو المجوسية . وأما الوثنيات الأصل فيسارعن إلى اعتناق الإسلام ديناً . وكثيراً ما تتحول الكتابيات أنفسهن إلى الدين الحنيفى ، ويقمن بالشعائر اللازمة فى مثل هذه الأحوال تقرباً من أسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجاً شرعياً . ينتقلن إلى الاسلام ، لأن الاختلاف فى الدين يؤدى حتما إلى أن لايرث أحدهما الآخر . لذلك كانت الجوارى الكتابيات يسلمن أو يتظاهرن بالإسلام ليرثن أزواجهن الأغنياء بعد موتهم . ولم يكن اعتناقهن الدين الجديد بالامر الصعب المنال ، بل ينحصر ذلك بأن تشهد الجارية على نفسها أمام أحد الشيوخ ، وأن يكتب النص الآتى :

« حضر إلى شهوده فى يوم تاريخه من ذكر أنه حضر إلى مجلس فلان — أدام الله أيامه — فلان بن فلان الفلانى (أو فلانة) ، وأشهدهم على نفسه أنه تلفظ بالشهادتين المعظمتين ، وهما شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأن عيسى بن مريم عبدالله ونبيه ، ومريم أمة الله ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين ، وأن شريعته أفضل الشرائع ،

وملته أفضل الملل . وأن ما جاء به عن الله حق . وقال : أنا برئت من كل دين يخالف دين الإسلام . ودخل فى ذلك طائعاً مختاراً . وأشهد عليه بذلك . وتلفظ به بتاريخ كذا وكذا » .

فإن أسلم يهودى (أو يهودية) كتب موضع عيسى : وأن موسى عبدالله ونبيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وشريعته أفضل الشرائع . وأن شريعة محمد (ص) نسخت شريعة موسى وجميع الشرائع إلخ ...[1] .

أما الجوارى اللواتى يبقين فى الرق فيحافظن فى أغلب الأحيان على دينهن القديم ، ويقمن بشعائره ، ويتقيدن بنواهيه ، ويتساهل أسيادهن معهن فى ذلك ، فلا يكرهونهن على تغيير عقيدتهن ، وإنما يحترمون دينهن ، ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة فى المواسم والأعياد . وليس من الغريب فى شىء أن يدخل المقربون من المأمون مجلسه فيجدون جماعة من الجوارى الروميات وقد تمنطقن بالزنار ، وتزين بالديباج الرومى ، وعلقن على أعناقهن صلبان الذهب ، وأخذن فى أيديهن الخوص والزيتون بمناسبة عيد الشعانين ، وهن فى مرح وبهجة ، والمأمون ينظر إلى ذلك ، ولا يستغرب ما يجرى

---

(١) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٤٥

حوله[١] . فمن المغالاة ، بل من الإسراف فى المغالاة ، القول إن المسلمين أكرهوا جواريهم على تبديل دينهن . ولعل كثيراً من الشعائر النصرانية واليهودية والمجوسية كانت تقام فى قصور الخلفاء ، أمراء المؤمنين ، الذين يرمزون إلى أرفع سلطة زمنية وروحية فى الإسلام .

أدى تدين الجوارى بغير دين السادة ، وتسربهن إلى جميع القصور ، والحظوة التى كانت لهن فى القلوب إلى ظهور نفوذ الأخوال الأعاجم من فرس وترك وروم ، وإلى تنفذ طوائف من رجال الأديان التى تدين بها الجوارى المحظوظات الرفيعات المقام . ولسنا نعجب بعد هذا إذا طالعنا فى كتب التاريخ أن كثيرين من الخلفاء والوزراء والأمراء والعمال قربوا إليهم غير المسلمين وأنعموا عليهم بالخيرات ، ووسعوا عليهم ، وحكموهم بسواهم وبالمسلمين أحياناً ، لأن أمهات هؤلاء المتنفذين على دين النصارى أو اليهود أو المجوس . فكان للمقتدر خال رومى يعرف باسم غريب ، يخاطبه الناس بالإمرة ، وهو ذو سلطان ، يرهبه الناس ، ويتقربون إليه فى سبيل الوصول إلى ما يريدون من نعم الخلافة .

---

(١) الأغانى ج ١٩ ص ١٣٨ .

والدة الأمير القسرى

من أوضح الأمثلة على هذا النفوذ ما جرى للأمير خالد بن عبد الله القسرى عامل العراق للأمويين مع أمه النصرانية ، وهى رومية الجنس ، تغزل بها أحد الشعراء فقال مدافعاً عن نصرانيتها وزرقة عينيها :

يقولون نصرانية أم خالد ... فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تك نصرانية أم خالد ... فقد صورت صورة لا تشينها
أحبك إن قالوا بعينك زرقة ... كذاك عتاق الطير زرق عيونها

وقد تأدبت بآداب العرب ، ولقنت لغتهم وفصاحتهم حتى طاع لها نظم الشعر أيضاً . وكان ابنها خالد محسناً إلى أهل الذمة يعرف لهم أقدارهم ، ويقلد من يصلح منهم الأعمال الديوانية . وهو أمر أنكره عليه هشام بن عبد الملك[1] ، ويظهر أنه لم يكن فى زمانها كنيسة للروم الملكيين فى الكوفة ؛ ويشق عليها أن تشهد صلوات النساطرة واليعاقبة ، فسألت ابنها أن يبنى لها بيعة خاصة بمذهبها البيزنطى . فلبى دعوتها ، وأقام لها البيعة المنسوبة إليه ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص . وهدمت

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٥٩

بعد قتله ، وصار فى مكانها سكة البريد(١).

إخلاصهن

مما لا شك فيه أن الخداع كان أسرع إلى قلوب قيان الحانات وبيوت القيانين مما هو إلى قلوب الجوارى اللواتى يلقين مراسيهن فى منازل أصحابهن فيأمن فيها تقلب الأيام، وسوء المصير . ومما لاشك فيه أيضاً أن بعض الجوارى كن يخلصن لأصحابهن إخلاصاً عميقاً عنيفاً لا يزعزعه الحدثان ، ولا يضعفه ترهيب أو ترغيب ، كتلك الجارية الحسناء التى كانت للواثق ، فلما أخذها المتوكل أرادها على الغناء ، فأبت أن تغنى وفاء لصاحبها ، فأقام على رأسها خادماً ، وأمره أن يضرب رأسها أبداً أو تغنى ، فغنت مكرهة مستعبرة(٢) . وكثيرات من الجوارى ذهبن فى إخلاصهن لأسيادهن مذهباً لم تدانه الحرائر الأصيلات ، والأمثلة على ذلك عديدة . فإن دنانير كانت جارية مولدة من أحسن الناس وجها وأظرفهن وأكملهن أدباً ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر . فلما رآها يحيى بن خالد البرمكى ، أعجب بها فاشتراها ، وأتم تثقيفها على إبرهيم الموصلى حتى كانت تغنى غناءه فتحكيه ،

(١) حبيب الزيات ـ من الخزانة الشرقية ـ المشرق ج ٣ تموز ١٩٣٧

(٢) الأغانى ج ٤ ص ١١٥

فلا يكون بينهما فرق . وأغرم هرون الرشيد بفنها . فكان يتردد على صاحبها ، ووهب لها يوماً عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار ، حتى عابه أهله على ذلك . وشغف بها صاحبها حتى كان يتصدق عنها فى كل يوم من شهر رمضان بألف دينار ، لأنها كانت لا تصومه . وعند ما نكب البرامكة ، وحل الوبال بصاحبها ، دعاها الرشيد إلى قصره ، وأمرها أن تغنى فقالت : يا أمير المؤمنين إنى آليت ألا أغنى بعد سيدى أبداً . فغضب وأمر بصفعها ، فصفعت ، وأقيمت على رجليها ، وأعطيت العود فأخذته وهى تبكى أحر بكاء ، واندفعت فغنت :

يا دار سلمى بنازح السند بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يعد

متيم

وكذلك أمر الجارية متيم ، وهى صفاء من مولدات البصرة . فيها نشأت وتأدبت وبدأت بالغناء ، بعد أن أخذت عن مشاهير المغنين الذين عاصروها ، كإسحق الموصلى . فاشتراها على بن هشام ، وهو من أمراء المأمون وقواده ، وتولى له حرب بابك الخرمى ، ثم غضب عليه ، لأنه استعمله على أذربيجان وغيرها ،

فبلغه ظلمه وأخذه الأموال ، فقتله[١]. عند ما اشتراها على بن هشام كانت لا تزال جويرية ، فدفع فيها عشرين ألف درهم ، فازدادت فى مجلسه جمالا وتفنناً بالغناء لكثرة من كان يغشاه من مشاهير المغنين ، واستفادت أدباً وعلماً . ونظمت الشعر ارتجالا وعن روية ، وتقدمت على جواريه معرفة وحظاً . وقد سأل المأمون على بن هشام أن يهبها له لإعجابه بجمالها وغنائها ، فأباها عليه ، وحرص على أن تصبح أم ولد فيأمن عليها من طمع المأمون . ويقال إن امتناع على من النزول عنها كان من الأسباب التى دعت إلى النقمة عليه وقتله .

عند ما فتك المأمون بصاحبها عتقت ، وكانت قد ولدت له أكثر أولاده ، فلم يتوصل إليها الخليفة ، وإن استصفى مال على بن هشام ، وأخذ جواريه غير أمهات الأولاد . وقد حزنت متيم على مولاها حزناً شديداً ، وأخلصت له طول عهد المأمون ، ولم يذكر المترجمون لها أنها غنت للخليفة بعد أن أوقع بعلى ، وإنما يذكرون أنها مرت مع نسوة وهى متخفية بقصر على بن هشام بعد أن قتل ، فلما رأت بابه مغلقاً لا أنيس عليه ، وقد علاه التراب والغبرة ، وطرحت فى أفنيته المزابل ، وقفت وناحت

---

(١) الطبرى وابن الأثير فى حوادث ٢١٧ هـ .

عليه ، ثم بكت حتى سقطت من قامتها . وجعل النسوة يناشدنها الله فى أن تكف وتسير ، لئلا تؤخذ . وبعد لأى ، حملنها تتهادى بينهن ، حتى تجاوزت الموضع . ويذكر أيضاً أنها عادت إلى الغناء أيام المعتصم ، بعد قدومه بغداد . فقد دعا بها ، فذهبت إليه فأمرها بالغناء ، فغنت :

هـــل مسعد لبكاء بعبرة أو دماء

فطلب منها العدول عنه إلى غيره ، فغنته بمعناه ، فدمعت عيناه وأشار بالانتقال إلى معنى آخر فغنته :

لا تأمن الموت فى حل وفى حرم
إن المنايا تغشى كل إنسان

فقال : والله لولا أنى أعلم أنك إنما غنيت بما فى قلبك لصاحبك وأنك لم تريدينى لمثلت بك . وأمر من كان بين يديه ، فأخذوا بها وأخرجوها من مجلسه . ولعلها عادت فيما بعد إلى المعتصم واستأنفت الغناء فى حضرته ، إلى أن توفيت .

فارقت متيم الحياة قريب وفاة إبرهيم بن المهدى المعروف بجمال الصوت وعقب وفاة بذل القينة المشهورة . فقالت جارية ظريفة للمعتصم ، وقد أسف على موت هؤلاء الفنانين الثلاثة : يا سيدى ! أظن أن فى الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء إليه . وحدث أن

وقع حريق فى حجرة هذه الجارية بعد قليل، فأتى على كل ما تملكه ، وسمع المعتصم الجلبة ، فدعا بها ، وسألها عما أصابها ، فقالت يا سيدى احترق كل ما أملكه . فقال : لا تجزعى ! فإن هذا لم يحترق ، وإنما استعاره أصحاب ذلك العرس[1].

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٩٣ — ٣٠٨

obeikandl.com